

## العمارة الأموية في الأندلس

بعد سقوط الخلافة الأموية وتأسيس الخلافة العباسية في بغداد، هرب الأمويون إلى الأندلس، وأسسوا هناك دولة مستقلة عن الدولة العباسية في بغداد. لهذا يتشابه الطراز الأندلسي في العمارة مع الطراز الأموي في دمشق والشام عامة، ولقد تأثر الطراز الأندلسي بالطرز المحلية البدائية أيضا.

بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس، أصبحت الأندلس تحت الحكم المورافي ثم المهدي في المغرب ثم الناصري، الذي نقل العاصمة من البحر المتوسط إلى الأندلس. في تلك العصور الثلاثة ازدهر فن العمارة ازدهارا كبيرا، وتأثر بطراز العمارة الأموي والأندلسي والمغربي.

ساد البذخ في البناء، وصل إلى درجة كبيرة من الإسراف والترف في البناء والزخرفة، وقد بلغ الفن الإسلامي في الأندلس قمة ازدهاره، في قصر الحمراء الذي بني في القرن الثامن الهجري، ثم توقف تطور الفن الإسلامي في الأندلس بعد ذلك، بسبب الاضطرابات التي وقعت فيها قبل سقوطها.

وكانت أهم المراكز الفنية المعمارية في بلاد المغرب والأندلس: أشبيلية، وغرناطة، ومراكش، وفاس، وقد تركت لنا الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب عدة آثار معمارية رائعة، نكتفي منها ببعض الأمثلة من بلاد الأندلس وهي:

## المسجد الكبير بقرطبة:

تم بناؤه في عهد عبد الرحمن الداخل في قرطبة وقت استقراره /170هـ-786 م/، بناه متأثراً ببناء المسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأموي بدمشق. كانت مقاييس المسجد الأصلية /65-75 م/ وكان مكوناً من /12/ رواقاً موازاً لجدار المحراب، وتسع بلاطات عمودية على جدار القبليّة، كما كانت البلاطة الوسطى أوسع من البلاطات الجانبية وكانت تؤدي إلى المحراب.

ثم أدخلت عليه بعد ذلك تعديلات كثيرة، وتضم المساحة الكلية للبناء -بما في ذلك الجدران- شكلاً يكاد يكون رباعياً، وينقسم إلى قطاعين من الشمال إلى الجنوب يتساويان فيما بينهما تقريباً، ويبلغ ارتفاع المسجد تسعة أمتار، وسقف المسجد عبارة عن ألواح خشبية مرصوفة عرضياً، وتكسو الألواح والعوارض الطولية زخارف هندسية عبارة عن دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات، ويحيط بالسقف إطار من الآيات القرآنية. يرتكز السقف على مجموعة من العقود نصف الدائرية تقوم على أعمدة رفيعة، تحمل أخرى أقل منها حجماً، يربط بينها عقود متداخلة يعلو بعضها بعضاً، وجميع العقود العليا ملونة باللون الأحمر.

وفي آخر زياداته أصبح عدد الأروقة في المسجد /35/ رواقاً موازياً لجدار القبلة، و/19/ بلاطة عمودية على جدار القبليّة، وفي البلاطة الوسطى قبة صغيرة تجاورها عن اليمين والشمال قبتان أصغر، ولهذه القباب تطور معماري لأن تجويفها يقوم على عقود حجرية نصف دائرية تتقاطع مع نقطة واحدة وهي قمة القبة، وهذه العقود تصنع عند تقاطعها عقوداً مدببة، كالتالي قامت عليها طراز العمارة القوطية في الغرب الأوربي. وعقود جامع قرطبة هي أقدم عقود من هذا الطراز. أي أن الطراز القوطي قام على أساس ابتكار عربي إسلامي، ظهر في جامع قرطبة في القرن العاشر الميلادي.

وقد بنى الولاة في الأندلس مساجد أخرى كثيرة، غير أنها تهدمت، وتحول بعضها إلى كنائس بعد زوال الحكم الإسلامي من الأندلس، حتى مسجد قرطبة بُني في داخله هيكل كنسي.

## مدينة الزهراء:

وقد بناها عبدالرحمن الناصر سنة /325 هـ/، وقد جلب لبنائها الرخام من إفريقية وروما والقسطنطينية.

وبنى فيها قصر المؤنس يتوسط فناءه حوضًا من الرخام، زينه بنقوش مذهبة بها صور آدمية، وجعل عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر، وهذا تطور جديد حيث استعملت الصور والتماثيل التي حرّمها الإسلام. وجعل سقف قصر الخلافة وجدرانه من الرخام ذي الألوان الصافية، وأنشأ وسطه صهريجًا عظيمًا مملوءًا بالزئبق، وكان للقصر من كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، وكانت الشمس تدخل تلك الأبواب فيضرب شعاعها جدران القصر، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان في هذه المدينة محلات للطيور، ومسارح للوحوش، ودور لصناعة آلات الحرب، والحلي وغيرها من الصناعات، وكان بها مسجد صغير مزخرف بالرخام والذهب والفضة.

### قصر الحمراء:

بناه حكام بني الأحمر في غرناطة بعد زوال سلطان الموحدين من الأندلس، هذه المدينة التي امتازت بسلامة التخطيط، الذي يحقق التناسق والانسجام والتوافق بين الوحدات المعمارية المكونة للمدينة، وقد زاد في جمال المدينة وروعيتها، وجود البساتين والحدائق الغناء والمناظر الطبيعية الخلابة.

ويعد هذا القصر أعظم الآثار الإسلامية في روعة البناء والزخرفة والهندسة، فقد وضع فيه المهندسون خلاصة فنهم وجعلوه قصرًا خياليًا، تبهر زخارفه وعقوده الأبصار، وتنطق الطبيعة بما حوله من خضرة وماء بأروع صور الجمال والبهاء.

وكان هذا الإسراف المادي في البناء والزخرفة، على حساب التقدم الروحي للمسلمين في تلك البلاد؛ مما جعل الناس يركنون للراحة والكسل، مما أطمع أعداءهم، وألان شوكتهم، وأزال دولتهم.

بناه ابن الأحمر في أوائل القرن الثالث الميلادي، وتزين واجهات القصر شعار دولة بني الأحمر (لا غالب إلا الله). يشتمل المسقط الأفقي للقصر على قاعات كبرى، منها قاعة السفراء وقاعة المجلس بالإضافة إلى القاعات الرئيسية للجناح الملكي والحمامات، ويتوسط البهو ذو السباع نافورة، تقوم على أعمدتها الرشيقة عقود نصف دائرية، تعلوها جدران مكسية بالأعمال الزخرفية والنقوش العربية البديعة.

## أهم الملامح الخاصة التي تميز العمارة في المغرب و الأندلس:

- 1- استخدام الأقواس نصف الدائرية أو حدوة الفرس الدائري والمدبب، والأقواس المفصصة والمقرنصة والمتشابكة، وكانت العقود أو الأقواس بشكل عام منخفضة.
- 2- التركيز على استخدام النقوش الجصية في الزخرفة، التي بلغت مستوى رفيعاً من دقة النقش وتنوع الزخارف والمواضيع، إلى جانب استخدام الفسيفساء الزجاجية (الزليج) حيناً والخزفية أحياناً أخرى. وما يلفت النظر الإسراف في استخدام الزخرفة، التي غطت كل التفاصيل المعمارية.
- 3- كسوة السطوح المائلة والقباب الهرمية بالقرميد من ظاهرها، ويكون لونه أخضر غالباً.
- 4- كانت الأروقة في معظم المساجد عمودية على جدار القبلة، ويشكل الرواق الأوسط المجاز القاطع، الذي ينتهي بقبة فوق المحراب.
- 5- تجويف المحراب كبير يشبه غرفة ذات ثمانية أضلاع ومسقوفة بقبة صغيرة.
- 6- المئذنة ذات مقطع مربع، فهي كالبرج تزينه نقوش مكونة من محاريب مسطحة، وأقواس متنوعة الأشكال، ويصعد إليها غالباً بمنحدر يطوف حول نواة مربعة بدلاً من الدرج.
- 7- للمنبر في معظم المساجد، غرفة يمين المحراب، يحفظ فيها المنبر، يخرج يوم الجمعة وأيام العيدين فقط، ليقف عليه الخطيب ويلقي خطبته، ثم يعاد إلى غرفته.
- 8- استعمال القباب الحجرية ذات الضلوع المتقاطعة، وللمرة الأولى في تاريخ العمارة (جامع قرطبة).
- 9- استخدام الخط الكوفي المشجر كشكل من أشكال الزخرفة.

## العمارة العباسية في عهد الدولة الطولونية بمصر

استقل أحمد بن طولون (وهو مملوك تركي)، بحكمه عن مركز الخلافة العباسية في عام 254هـ-878م، وبدأ ببناء الجامع الذي خلد اسمه في عام 265هـ-879م.

## مسجد ابن طولون:

وقد أنشأ ابن طولون هذا المسجد في مدينة القطائع، التي بناها فوق هضبة جبل يشكر، وكان المسجد يتصل بالميدان الذي أنشأه أمام قصره ولذلك سمي جامع الميدان، ويتكون المسجد من صحن مربع في الوسط، وهو فناء مكشوف يبلغ طول ضلعه /92م/، وتحيط به أربعة أروقة مسقوفة ورواق القبليّة هو أوسع هذه الأروقة، وينقسم إلى خمسة أروقة بواسطة خمس صفوف توازي جدار القبليّة، وكل صف يتألف من /17/ عقدا مديبا تحملها أكتاف مستطيلة المسقط مبنية بالقرميد. وخفف ثقل البناء فوق الدعامات وبين العقود، بعمل فتحات صغيرة ذوات رؤوس من العقود المدببة، تساعد على إعطاء الضوء إلى داخل الأروقة القبليّة العميقة، ونفس الأسلوب متبع في بقية الأروقة. أما القبليّة فهي مستطيلة الشكل /138-118م/، ويحيط بالمسجد من الخارج زيادات من ثلاث جهات ماعدا حائط القبلة التي كانت تلاصقها دار الإمارة التي أنشأها ابن طولون.

يتميز جامع ابن طولون بكثرة النوافذ في الجدران الخارجية، والنوافذ على شكل عقود مدببة في نواصيها أعمدة ملتصقة فصيرة، ووضع بين الشبايبك حنيات غائرة. للجامع /19/ بابا، تفتح أربعة منها على رواق القبليّة من الجانبين، وخمسة أبواب تفتح على الرواقين الشرقي والغربي، والخمسة الباقية تفتح على الرواق الشمالي. كما يتميز جامع ابن طولون عن بقية الجوامع باستخدام العقود المدببة ذات المركزين بكثرة، واستخدام الأكتاف (الدعامات) بدلا من الأعمدة، وقد بلغ عددها /160/ دعامة.

كانت مادة البناء المستعملة القرميد، يستند السقف على أفريز خشبي مباشرة، يعلوه شريط من الزخارف الجصية، وبسير هذا الشريط على قمم إطارات العقود مباشرة.

وأشهر عناصر المسجد منئذته، التي بنيت على غرار المنذنة الملوية في جامع سامراء بالعراق. للمنذنة سلم من الخارج يؤدي إلى أعلى المنذنة. والخلاف بين المنذنة الملوية ومأذنة جامع ابن طولون، أن ما يقارب ثلثي ارتفاع بدنها مضع يعلوه جزء اسطواني، بينما يرتفع بدن المنذنة الملوية بجامع سامراء مستديرا كله من القاعدة حتى نهايتها العلوية. تختلف مادة بناء المنذنة عن مادة بناء الجامع، حيث استخدمت الحجارة في تشييد المنذنة بينما استخدم القرميد في بناء الجامع.

ومن أشهر المعالم المعمارية في عهد الدولة الطولونية بمصر:

1- **القطائع:** أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة في سنة 256هـ/870م، على جبل يشكر-الذي يعرف بقلعة الكباش- بين الفسطاط وتلال المقطم، وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع؛ لأن كل طائفة من رجاله اتخذت لها قطيعة لسكانها، فيقال: قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراشين، وبني القواد مواضع متفرقة، فعمرت القطائع، وبُنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات، حتى صارت القطائع مدينة كبيرة. وبنى ابن طولون في مدينة القطائع قصرًا ضخمًا، جعل أمامه ميدانًا فسيحًا ليستعرض فيه جيشه، ثم أقام حول القصر ثكنات لجنوده وحاشيته.

2- **البيمارستان:** أنشأ ابن طولون بيمارستانًا سنة 259هـ/872م، لمعالجة المرضى مجانًا دون تمييز بين الطبقات والأديان، وجعل العلاج فيه دون مقابل، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية، فإذا دخل المريض المستشفى تنزع ثيابه وتقدم له ثياب أخرى، ويودع ما معه من المال عند أمين البيمارستان، ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه، وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف كامل ودجاجة، وعندئذ يُسمح له بمغادرة المستشفى، وكان ابن طولون يتفقد المستشفى، ويتابع علاج الأطباء، ويشرف على المرضى.

3- **إنشاء القناطر:** شيّد أحمد بن طولون في الجنوب الشرقي من القطائع قناطر للمياه، وكان الماء يسير في عيونها إلى القطائع من بئر حفرت في أسفلها، وكان يرفع الماء من البئر إلى القناطر بواسطة ساقية، وقد بنيت هذه القناطر من نفس الحجر الذي بُني منه الجامع الطولوني. لهذا يعتقد أن المهندس الذي شيدها هو نفس المهندس الذي شيّد الجامع، ولا تزال بقية من هذه القناطر باقية إلى اليوم في حي البساتين بالقاهرة.

4- **مسجد التنور:** شيّد أحمد بن طولون مسجدًا آخر على جبل يشكر يعرف بمسجد التنور، ويذكر المؤرخون أن مسجد التنور هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب من عين شمس، ويقال: إن تنور فرعون لم يزل في هذا الموضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قواد أحمد بن طولون فهدمه وحفر تحته، ويبدو أنه كان يظن أن هناك مالا مدفونًا تحته، ولكنه لم يجد شيئًا. وقد بنى أحمد بن طولون لهذا الجامع مئذنة، كانت تستعمل فيها النيران ليلاً لهداية الناس.

## العمارة الفاطمية

كانت المهديّة قرب تونس عاصمة للدولة الفاطمية، والتي نسبت إلى مؤسس الدولة الفاطمية "المهدي بالله أبي محمد عبيد الله"، تمكن فيما بعد القائد جوهر الصقلي في زمن المعز لدين الله عام 358هـ-969م، أن يأخذ مصر من الأخشيد، حيث أُنشأ فيها مدينة القاهرة ذات التحصين. كما أنشئ فيها الجامع الأزهر في نفس العهد، وشهد عهد المعز بنقل العاصمة من المهديّة إلى القاهرة، وأنت تسمية الفاطميين من اعتقادهم بالنسب إلى فاطمة الزهراء.

وفي أواخر العهد الفاطمي انفصلت مصر عن سورية، ونشأت في سورية دول مستقلة مثل: دولة بني مرداس في حلب والدولة الزنكية في دمشق، وعادت الوحدة بين سورية ومصر في عهد الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

على الرغم من خضوع سورية للحكم الفاطمي، فإنهم لم يشيدوا في فترة حكمهم منشآت ذات أهمية خاصة. أما بالنسبة لمصر فقد شيدوا فيها العديد من الجوامع الواسعة والرحبة، إلى جانب بناء قلعة القاهرة، وتحصين المدينة بإحاطتها بالأسوار المدعمة بالأبراج والأبواب الحصينة، ولكن يبقى جامع الأزهر أهم المباني وأشهرها.

### جامع الأزهر

اعتاد المصريون أيضا إقامة المحافل الدينية والاجتماعية والأحداث الجماعية في تلك المساجد، وكانوا يقومون بأعمالهم وتجارتهم في أسواق كبيرة أنشئت خارج المساجد. هكذا اضطر الفاطميون إلى تغيير أسلوبهم في المعمار.

بنى الفاطميون مساجد أكبر وكان أولها الجامع الأزهر ومسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الصالح طلائى. وجميع هذه المساجد توضح الجانب الاجتماعي الذي ميز المساجد الفاطمية، حيث كان الآلاف يحتفلون المولد النبوي، وليلة عاشوراء، وعيدي الفطر والأضحى، والأحداث الهامة الدينية والاجتماعية والاقتصادية، خاصة أن العصر الفاطمي الثاني كان عصرا للرخاء الاجتماعي.

يقع جامع الأزهر في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة. بناه القائد جوهر الدين الصقلي باسم الخليفة المعز لدين الله، وتم بناؤه عام 972م. وأدخلت عليه الكثير من التعديلات والزيادات التي أفقدته أصالته المعمارية في العهد الفاطمي.

أما بالنسبة للمخطط العام للجامع، وبعد حذف الزيادات التي تمت في العصور التالية، يتبقى لنا جامع مستطيل الشكل أبعاده /69-75 م/ له مدخل يتوسط الجدار الغربي، ومدخلان إلى اليمين وإلى اليسار فتحا في وسط الضلع الأيمن والأيسر بحيث ينتصفا جانبي الصحن.

وليس بالجامع مؤذنة ترجع إلى العصر الفاطمي، فالمآذن الحالية تنسب للسلطان قايتباي والسلطان الغوري، وللأمير عبدالرحمن كتحدا العثماني، أحد أمراء القرن الثامن عشر الميلادي.

إن معظم العناصر المعمارية القائمة الآن تعود إلى العصر المملوكي، والجامع الأزهر أنشئ ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية في عاصمتها الجديدة، ومقرا لدعوتها الدينية ورمزا لسيادتها الروحية.

وكان استخدام الخط الكوفي من مميزات العصر الفاطمي، حيث استعمل في النصوص القرآنية والتاريخية، وأساسا لعناصر زخرفية جميلة.

كما ينفرد الجامع الأزهر ببداية استعمال المقرنصات، كعنصر زخرفي فوق الأبواب والنوافذ.

ومن المساجد الأخرى التي شيدت في مصر خلال العصر الفاطمي، جامع الحاكم بأمر الله الذي شيد عام /990 ميلادية، وجامع الأقصر الذي بني عام /1125 ميلادي.

لقد تميز فن العمارة الفاطمي بسمات خاصة وطابع جديد، وقد ترك لنا الفاطميون عدداً من الآثار المعمارية الرائعة نذكر لك أمثلة منها:

**مدينة القاهرة:** بعد استيلاء جوهر الصقلي على الفسطاط عام /358 هـ/، وضع تخطيطاً لمدينة القاهرة، وكان تخطيطها على شكل مربع تقريباً، يواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصلية، ويتجه الجانب الشرقي نحو المقطم، والغربي يسير بمحاذاة النيل، والبحري نحو الفضاء الواقع في الشمال، والقبلي يواجه الفسطاط، وطول كل ضلع من أضلاع المدينة ألف ومائتا متر، ومساحة المدينة ثلاثمائة وأربعون فداناً، وكان هذا السور مبنياً من الطوب اللبن، ويتوسط المدينة قصران هما: القصر الكبير الشرقي، والقصر الصغير الغربي، وبينهما ميدان لاستعراض الجند، وأصبحت القاهرة عاصمة للخلافة الفاطمية التي امتدت من المغرب إلى



الشام، وكان بسور القاهرة عدة أبواب، لم يَبْقَ منها الآن سوى بابي النصر والفتوح في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وهي تمثل العمارة الحربية في العصر الفاطمي.

**قصور الفاطميين:** وقد شيد الفاطميون عددًا من القصور أهمها: القصر الذي بناه جوهر الصقلي بالقاهرة للخليفة المعز، وكان في الفضاء الذي يقع فيه الآن خان الخليلي ومسجد الحسين، وقد أطلق عليه القصر الشرقي الكبير، كما أطلق عليه القصر المعزّي، ويقال إنه كان به أربعة آلاف حجرة، وبه عدة أبواب، وكان في غرب هذا القصر، قصر آخر أصغر منه، هو القصر الغربي الذي بناه العزيز بالله، وموقعه مكان سوق النحاسين، وقبة الملك المنصور وما جاورها، وهكذا غلب طابع الإسراف على فن العمارة في عهد الفاطميين، وأسرفوا في النفقات على مبانيهم الخاصة بهم.

د. عبير شدود